سورة الشمس

* هذه السورة، سورة (الشمس)، سميت بهذا الاسم:

لأن الله ﷻ أقسم بالشمس في مستهلها.

* ومن مقاصد هذه السورة:

- بيان طبيعة النفس البشرية، وطريقة إصلاحها.

- تذكير الكفار بأيام الله، في الغابرين.

استهل الله ﷻ هذه السورة بعدة أقسام، فقال:

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ على حقيقة عظيمة﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ ولله ﷻ أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

فأولها: الشمس، وهو الكائن العظيم، والمخلوق الكبير، والجرم الملتهب، الذي يمد حياتنا بالدفء والضياء، فلا حياة للحيوانات، ولا للنباتات، بدونه.

فقد جعل الله - تعالى - هذه الشمس (سراجاً وهاجا)؛ ففيها الإضاءة، وفيها الدفء، وفيها أثر لم يكن معروفاً للناس قديماً؛ وهو أن هذا الضوء المنبعث من الشمس ضروري لعمليات التمثيل الضوئي في النباتات، التي يحصل بها النمو، كما هو معروف لدى علماء الطبيعة، كما أن لها تأثيراً في تكون بعض الفيتامينات (فيتامين د)تحت الجلد اللازم لبناء العظام لدى الإنسان .

ثم أقسم ثانياً، بالضحى، فقال: ﴿وَضُحَاهَا﴾

وقد اختلف في المراد (بضحاها) هل هو النهار كله؟ أم أنه أول النهار؟ ولا شك أن معنى الضحى هو الضوء الذي يكون في أول النهار. وأجلى ما يكون الضوء، في أول النهار، لأنه يأتي عقيب ظلمة، فيتبين فضل هذا الضوء، فلذلك أقسم الله - تعالى - به، وعطفه على الشمس التي هي مصدره.

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ القمر: كوكب، وليس نجمًا كما الشمس، فالشمس جرم ملتهب، ولذلك يبعث الحرارة، أما القمر فإنه كوكب بارد، ليس فيه حرارة، وإنما هو مرآة يعكس نور الشمس على الأرض، ولذلك تكون إضاءته بحسب حاله من الشهر، فأول الشهر يكون هلالاً، لكون الأرض تحجب معظمه، فلا يقع عليه ضوء الشمس، ثم لا يزال يتسع، ويتسع حتى يصل إلى درجة الإبدار في منتصف الشهر، حينما يكون مستقلاً، منفصلاً، وجاه الشمس، ثم يأخذ في آخر الشهر بالانحسار، حتى يتدأدأ، ثم ينمحق، ويستسر، ثم يبدأ دورة من جديد. فحينما يقسم الله تعالى بهذه المخلوقات ينبه على منافعها، وعلى جريانها، الذي يدركه كل أحد.

﴿ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ أي تبعها طالعاً بعد غروبها؛ وذلك أنه لا سلطان للقمر، مع س لطان الشمس، فإن ضوء الشمس يغلب ضوء القمر، حتى لو رؤى القمر أحياناً، أثناء النهار، فإنما يرى كما يرى الغيم، أبيض، خافتاً، غير مشع، فسلطان الشمس، وضوؤها، أعلى، وأقوى من ضوء القمر؛ لأنه فرع عنه، فلذا قدمه ا بالذكر.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ يعني: إذا ارتفعت فيه الشمس، وبان ضوؤها. وكأنما هذا النهار صفحة لظهور الشمس؛ فالنور المنبعث من جهة ما، لا يعلم أنه نور حتى يصطدم بحائل، فلذلك تحصل تجليتها بارتفاعها وبيان ضوئها على الأرض وقت النهار .

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ أي: غطى بظلمته عند المغيب. ومرجع الضمير للشمس؛ كما الضمائر السابقة، فكأنما الليل يغشى الشمس الذي انسحب ضوؤها، وحل محله الظلام.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾: السماء معروفة، وهي السقف المرفوع فوقنا. وإنما سميت سماء من السمو، وهو الارتفاع. وهذا التعبير (بناها) يدلنا على أن السماء جسم، وليست عماء. قال اللهﷻ ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفًا مَّحۡفُوظًا ﴾[الأنبياء٣٢]. كما أنها طبقات، بعضها فوق بعض، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك:٣].

﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ ما: تحتمل معنيين: إما أن تكون موصولة بمعنى من، أو تكون مصدرية.

فإن قلنا هي موصولة، فقد أقسم الله تعالى ببانيها، وهو الله تعالى نفسه.

وإن كانت المصدرية، فيكون تقدير الكلام: والسماء وبناءها. بمعنى خلقها. ولا شك أن هذا البناء من الله تعالى لكن البناء نفسه، مخلوق، فيكون الله تعالى قد أقسم أيضا بخلقٍ من خلقه، كما أقسم بالسماء.

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ المراد هذه الأرض المبصرة، وهي: التي يدب عليها الآدميون، والحيوان، والهوام، والزواحف، وغيرها.

﴿طَحَىٰهَا﴾ أي: بسطها، بمعنى أنه جعلها منبسطة للسائرين، ممهدة لهم. ويقال في (مَا) ما قيل في ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ فإما أن تكون (ما) بمعنى من أو تكون(ما) بمعنى المصدرية.

وهذه مشاهد كونية متقابلة. وهي مشاهد تتكرر على كل آدمي، ولكنه لا يلقى لها بالاً، ولا يرفع بها رأساً، ولا يتأمل بديع صنع الله، وحكمته البالغة في تس يير هذا الكون، وما ينبغي أن يتوصل إليه من العبودية لهذا الخالق العظيم، الذي أوجد هذا النظام البديع، وهذا النسق المميز. ففيها تحريك لهذه القلوب الغافلة، والنفوس البليدة، لتبصر، وتتفكر فيما حولها، ولا تكتفي بالنظرة السطحية التي لا تثمر لها شيئا .

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾: ﴿وَنَفْسٍ﴾ اسم جنس لكل نفس. ومعنى﴿سَوَّىٰهَا﴾ أي: خلقها سوية معتدلة. و ﴿وَمَا﴾: يتكرر فيها ما تقدم من أن تكون بمعنى الذي، أو بمعنى المصدر.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ هذا التفصيل جاء بين القسم والمقسم عليه. ومعنى ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ كما قال الراغب الأصفهاني – رحمه الله – في (مفردات القرآن) : (الإلهام: إلقاء الشيء في الروع، ويختص ذلك بما كان من جهة الله تعالى وجهة الملأ الأعلى)[1].

---

[1] مفردات ألفاظ القرآن (2/348).

وقد اختلف في المراد بالإلهام في هذا السياق :

- فقيل: بيَّن لها الخير والشر، أي: علمها.
- وقيل: جعل فيها القبول للخير والشر، أي: خلق فيها.

فمعنى قوله ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ أي: جعل فيها الاستعداد لقبول الخير، والاستعداد لقبول الشر. ففيها تهيؤ لكلا الأمرين. وبذلك تميزت عن النفس الملَكية، وعن النفس الشيطانية. فإن النفس الملَكية، متمحضة للخير،فقط. فملائكة الرحمن يسبحون الليل والنهار (لا يفترون)، (لا يسئمون)، (لا يستحسرون)، لا تحدثهم نفوسهم إلا بطاعة الله، وخشيته. والنفوس الشيطانية، نفوس متمحضة للشر، فقط. ليس فيها نازع خير. أما النفس الإنسانية فجاءت بين بين. ركب الله تعالى فيها نوازع للخير ونوازع للشر. ولأجل ذلك كانت محل الابتلاء، والاختبار. فبعد أن بيَّن الله حقيقة النفس، قال إثر ذلك، وهو جواب الأقسام المتعددة السابقة .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ الفلاح: هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ أي: خسر. ومعنى (دساها) أي: أخفاها، من التدسية، وهي: الإخمال، والإخفاء، بالكفر، والذنوب، والأخلاق الدنيئة. ولفظ الكفر، نفسه، يدل على التغطية. ولهذا سمي الزراع كفارا؛ لأنهم يغطون البذور بالتراب. فأصل الكفر التغطية، لأن الكافر غطى فطرته، وأخفاها. فالواجب أن يسعى المرء إلى الفلاح بتزكيتها، وأن يتجنب الخيبة، والخسار بتدسيتها. فوظيفة ابن ادم في هذه الحياة، أن يزكي نفسه، بتنمية بواعث الخير، وإخفاء، وإقصاء نوازع الشر. هذا مشروع العمر، وهذه خطة الحياة، لمن أراد النجاة من المرهوب، والفوز بالمطلوب.

ومن الدلالات التربوية لهذه الآية، أن يعلم الإنسان بأن في نفسه مخزوناً للخير، وأن عليه أن يستنبط هذا المخزون، ولا يدعه مطموراً، مغموراً، في مطاوي النفس.

كثير من الناس يحيا، ويموت، ولم يستخرج هذا الخير الذي ألهم إياه! ولأجل ذا، يجب على العاقل، أن يفكر جيدًا، كيف يستحث، ويستثير هذا الخير الذي في النفس.

فنفسك ليست نفس ملَك قد تمحض للخير، وليست نفس شيطان قد تمحض للشر، بل أُلهمت فجورها وتقواها، بمعنى أنه قد أُودع فيها الاستعداد للخير، والاستعداد للشر، وهذا هو محل الابتلاء، فلأجل هذا قال الله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ١٠]، فالمؤمن يزكي نفسه وينقيها، لا يزال يصلحها، ويتعاهدها، حتى تزكو، والكافر لا يزال يدسيها، ويخفي خيرها، حتى تخيب. ومهمة المؤمن أن يجاهد، حتى يرقى في سلم الكمالات، والمراتب العالية. ألم تروا أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [الأنبياء:٥١]، إذاً! عندك رشد يمكن أن تؤتاه، ويمكن ألا تؤتاه. فالموفق هو الذي يستنبط هذا الرشد في نفسه، والمحروم هو الذي يدعه مطموراً مغيباً. فعن عمران بن حصين رضي الله عنهما لقي النبي ﷺ الحصين بن معبد الخزاعي قال له: " يَا حُصَيْنُ كَمْ تَعْبُدُ اليَوْمَ إِلَهًا؟ " قَالَ أَبِي: سَبْعَةً سِتَّةً فِي الأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ. قَالَ: "فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟ " قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ. قَالَ: "يَا حُصَيْنُ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَسْلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَيْنِ تَنْفَعَانِكَ ". قَالَ: فَلَمَّا أَسْلَمَ حُصَيْنٌ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِيَ الكَلِمَتَيْنِ اللَّتَيْنِ وَعَدْتَنِي، فَقَالَ: قُلْ: "اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي" رواه الترمذي[٢]. فالموفق هو من آتاه الله رشده، كما آتى إبراهيم رشده، وأعاذه الله من شر نفسه. في نفسك التي بين جنبيك شر ، لو خرج هذا الشر ألقاك في المهالك، فأنت تسال الله أن يقمع هذا الشر، وتسأله أن يظهر هذا الخير. وما مثل ذلك، إلا كمثل بلد يوجد في أرضه نفط، ومعادن، وأحجار كريمة، فإن أهله قاموا عليه، واستنبطوا هذه الخيرات المكنونة، ازدهر البلد، وصار من الدول المتقدمة، وإن هم تركوا هذه الخيرات تحت أطباق الأرض لم ينتفعوا منها وبقوا متخلفين. كذلك النفس فيها من الخير المذخور، ومن الرشد ما

---

[٢] سنن الترمذي (3483) ضعفه الألباني.

يحتاج إلى استنباط واستخراج. فإن أنت فعلت، واستنبطته، واستخرجته، وزكيت نفسك، انتفعت دنيا، وآخرة. وإن أنت أهملته وتركته حرمت.

وهذا في الحقيقة مبحث مهم، يتعلق بفقه النفس. ويوجد له علم مستقل، يسمى (علم النفس) وهو من العلوم الإنسانية المعروفة. ولكن علم النفس الحديث، تكوَّن بعيدًا عن نور الكتاب والسنة، واعتمد على الملاحظة والاستنتاج، المجردين. ولا شك أن علم النفس قد توصل إلى نتائج مفيدة، وكون تراكمات علمية صحيحة، إلا إنه لا يزال قاصرًا قصورًا عظيمًا، لأنه لم يستنر بنور الوحي. فعلماء النفس المعاصرون، ومن سبقهم، يرون أن مقتضى البحث العلمي، تنحية جميع الأمور الغيبية، والدينية عن مجال بحثهم! وهذا في الحقيقة حرمان، وخسران، فإن الله تعالى هو خالق النفس، وقد قال﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ . فخالق النفس أعلم بمن خلق، وما خلق. فإذا حدثنا الله تعالى عن النفس الإنسانية، فكلامه كلام العليم الخبير، فمن زهد به، واستغنى عنه، فإنه يقع في قصور عظيم، وضلال بعيد. ولأجل هذا نجد علماء الملة، الذين توجهوا إلى العناية بتهذيب النفوس، وإصلاح القلوب، هدوا هداية عظيمة، بفضل استنارتهم بنور الكتاب والسنة، وتوصلوا إلى لب الموضوع، وأصابوا كبد الحقيقة، بأقصر طريق، كما تجد هذا النفس الإيماني المشرق، الذي ينفذ إلى الحقيقة مباشرة، في كلام الأئمة ال ربانين مثل أبي بكر الآجري ، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم،ابن رجب، غيرهم، رحمهم الله.

بينما يتخبط علماء النفس القدامى، والمحدثون، في نظريات مختلفة، تُطوِّح بهم يمينًا، وشمالاً، بسبب هذه النزعة العَلمانية، التي تنحي الدين جانبًا، وتتعامل مع الماديات فقط، فلا يهتدون إلى الحقيقة الكاملة، وإن أدركوا بعضها.

وبهذا يتبين اختلاف الخطة في فهم النفس الإنسانية، ومعالجتها، بين أهل الإيمان، وبين أرباب المدارس النفسية المختلفة. فمدرسة (سجموند فرويد) تنظر إلى النفس الإنسانية نظرة

جنسية بحتة، وتفسر دوافع الإنسان وتصرفاته المختلفة تفسيرًا جنسيًا يلبي حاجاته بناءً على هذا الأساس.

وهناك من ينظر إلى الإنسان بوصفه المادي، الحسي، البهيمي. فنظرته للإنسان نظرة الباحث عن الطعام، فيهتم بتلبية هذه الجوانب المادية، ولا يلقي بالا للجوانب الوجدانية، كما النظرية الشيوعية المادية .

وهناك، على النقيض، من ينظر إلى الجوانب الإشراقية، والروحانية، فيُغرِق فيها، كما في الفلسفات الشرقية المختلفة، التي تدعو إلى تعذيب الجسد، في سبيل انعتاق الروح، لبلوغ درجة (النرفانا)، كما يوجد في البوذية والهندوسية.

وكل هذه المذاهب، تتخبط في دياجير الظلمات. أما ما جاء من عند الله، فهو القسطاس المستقيم، والميزان الدقيق، الذي يوائم بين أشواق الروح، وحاجات الجسد. فالكائن الإنساني خلقه الله – تعالى – من قبضة من تراب، ومن نفخة من روح، ففي بنيته عناصر معنوية، روحانية، وفيه مكونات بدنية، حسية. والعقيدة، والشريعة، أتتا لإ صلاح الأمرين معًا، لم تحتفيا بجانب، وتهملا جانبًا، بل تعاملتا مع النفس الإنسانية، كما خلقها بارئها.

ولهذا نجد في كتاب الله ﷻ وفي سنة نبيه ﷺ ما يلبي أفراح الروح، وما يلبي نزعات الجسد. فلا رهبانية في الإسلام، وقد نهى رسول الله ﷺ، عن التبتل. وفي نفس الوقت لا اتباع للشهوات، وعبادة الجسد. نجد منظومة متناسبة بين هذين الأمرين، لا يجتمعان إلا فيما جاء به القرآن والسنة.

هذا هو (علم النفس الإسلامي) الذي ينبغي أن يخدم، وأن يعتني به، وأن تجمع مفرداته، وأن يؤسس تأسيساً مستقلاً، غير متأثر بالنظريات الأرضية. ولا يكفي، لمن أراد أن يؤسس علم نفس إسلامي، أن يأتي إلى التراث الغربي، أو الشرقي، وينتخب منه، ثم يضع بعد كل جملة، لاحقة: (في حدود الشريعة الإسلامية) أو (في إطار الشريعة الإسلامية) هذا ليس أسلمة لعلم النفس، هذا نوع من التلفيق!

إذا أردنا أن يكون لدينا علم نفس إسلامي، فيجب أن نغوص في نصوص الكتاب والسنة، المتعلقة بالنفس الإنسانية، وأن نستنبط منها القواعد، والأسس، التي ترسم معالم هذه النفس، ثم نبوِّب الأبواب، ونفصل الفصول، فيكون لنا استقلالنا في نظرتنا إلى النفس الإنسانية، بدلا من أن نجتر كثيرًا من تجارب، وأخطاء الآخرين؛ من الشرق أو الغرب، كما هو الواقع، وللأسف، في الجامعات التي تدرس في أقسامها علم النفس.

الفوائد المستنبطة من الآيات السابقة

الفائدة الأولى: أن تنوع الأقسام وتعددها، دليل على أهمية المقسم به.

الفائدة الثانية: لفت النظر إلى بديع صنع الله، وتنبيه الغافلين.

الفائدة الثالثة: الطبيعة المزدوجة للنفس الإنسانية.

الفائدة الرابعة: الابتلاء والاختبار الذي يترتب عليه الثواب والعقاب.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَىٰهَا ﴿١٥﴾﴾

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾ ثمود: قبيلة قوية، من العرب البائدة، كانت تسكن وادي القرى، أو منطقة الحِجر، الواقعة بين مكة، والشام، والمعروفة، حاليًا، بمدائن صالح.

﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ أي: بتجاوزها الحد. فالباء سببية، يعني: هذا هو سبب تكذيبها.

والطغيان هو تجاوز الحد، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]

وقد آتاهم قوة، ومكنهم أن ينحتوا من الجبال بيوتاً، وأن يتخذوا من سهولها قصورًا، فبلغ بهم الطغيان أن كذبوا نبيهم صالح، وزادوا على ذلك بما وصف الله:

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾ ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾ يعني خرج بسرعة، أو انتدب. وأشقى ثمود، هو (قُدار بن سالف) بضم القاف. وكان من قصة ثمود، أنهم طالبوا نبيهم صالح (عليه السلام) بآية. وقد جرت سنة الله أن الآيات المقترحة تكون شؤمًا على أصحابها. فقالوا: أخرج لنا من هذه الصخرة الصماء، ناقة عشراء ،فنؤمن! فأقام عليهم الحجة، وأخرج لهم من صخرة صماء،

ناقة عشراء. يعني: قد بلغت شهرها الأخير، فهي على وشك الولادة. فابتلاهم الله بأن ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ ﴾[الشعراء:١٥٥]يعني: يوماً ترد، فتشرب كل الماء الذي تشربه القبيلة، ويشربون في اليوم الثاني. فضاقوا بذلك ذرعاً.

﴿ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾ ﴾ أي: صالح .

﴿ نَاقَةَ اللَّهِ﴾يعني: احذروا المساس بها، وذروها تأكل في أرض الله.

﴿ وسقياها﴾ أي: لا تتعرضوا لشربها في اليوم الذي لها، ولا تنازعوها فيه.

وناقة الله: من باب إضافة المخلوق إلى خالقه. وهي إضافة تشريف، لأن هذه الناقة آية، وليست كسائر النوق.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ ﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ردوا كلام نبيهم، ولا خافوا مما حذرهم منه.

﴿ فَعَقَرُوهَا﴾ قيل إن العقر: هو ضرب قوائم الدابة، وتحديداً، الوَتَر الذي يكون خلف العقب، أو الخف، فإنه إذا قطع لم تتمكن الدابة من السير، فتقع، ولا تستطيع المشي، فتهلك. وقيل: ضرب قوائمها، ثم قتلها بعد ذلك. المهم أن ذلك آل إلى هلاكها.

وقد عبر بالجمع ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ مع أن المنبعث، الذي باشر ذلك واحد، لأنهم راضون، والراضي كالفاعل. ولذلك أخذوا جميعاً بهذه الجريمة. قال عمر بن الخطاب ﷺ في رجل قتل في صنعاء: " لَوِ اشْتَرَكَ فِيهَا أَهْلُ صَنْعَاءَ لَقَتَلْتُهُمْ "[٣]. فالراضي كالفاعل، والمشارك يدخل في القوَد.

﴿ فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم ﴾ أي: أطبق عليهم بعذابه.

﴿ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ الباء في قوله بذنبهم للسببية، يعني: بسبب ذنبهم.

---

[٣] صحيح البخاري (6896).

والعذاب الذي أطبق عليهم، صيحة، ورجفة، عياذاً بالله ! صيحة قطعت نياط قلوبهم في صدورهم، ورجفة زلزلت أرضهم، فهلكوا جميعًا. قال تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

﴿فَسَوَّاهَا﴾ يعني: أنهم استووا في العقوبة، فلم يفلت أحد، لأن القوم كانوا راضين بفعل أشقاهم، موافقين، فلذلك اشتركوا جميعا في العقوبة.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ أي أن الله تعالى، لا يخاف تبعتها. وذلك أن غير الله تعالى إذا عاقب أحدًا، يتوجس خيفة أن هذا الذي وقع عليه عقوبة، هو، أو جماعته، ربما ينتقمون منه، فيخاف العاقبة. أما الرب سبحانه وبحمده تعالى فلا يخاف عقباها ، لأنه القوي، العزيز، القادر.

الفوائد المستنبطة من الآيات السابقة

الفائدة الأولى: شؤم عاقبة الطغيان .

الفائدة الثانية : تفاوت الكفار في كفرهم وشقاوتهم .

الفائدة الثالثة : أن التذكير موعظة، وإقامة حجة، وإبراء ذمة.

الفائدة الرابعة : أن الراضي كالفاعل.

الفائدة الخامسة : شدة أخذ الله للظالمين .

الفائدة السادسة : كمال قدرة الله سبحانه وسلطانه .